

قراءة في كتاب الأستاذ أحمد الشايب: «الدراسة الأدبية في المغرب الأستاذ عبد الله كنون نموذجا»

ذ. محمد زهير
المركز التربوي الجهوي
مراكش

أتى هذا الجهد العلمي في كتاب الأستاذ أحمد الشايب:« الدراسة الادبية في المغرب -الأستاذ عبد الله كنون نموذجا »(1) في سياق ما يلاحظ اليوم من توجيه العناية لكشف ودراسة المنجز الثقافي المغربي القديم والحديث والمعاصر، وهو جهد علمي بالغ الاهمية والضرورة، تسهم فيه المباحث الجامعية بفعالية، وإن لم يرق بعد إلى المشروع المخطط له بدقة، وإلى وتيرة الإنتاجية المكثفة لتحقيق التراكم الضروري ، وهو لم يرق إلى هذا المستوى لمضاعفة المصاعب في سبيله ، ومنها عسر الحصول على مواد الدراسة ومضاعفة مهام الباحث في مواجهتها ، إذ عليه فضلا عن التنقيب ، أن يجمع ويصنف ويؤرخ ويعرف ويدرس ،إلخ... من هنا نسجل أولا أهمية الجهد الذي بذله الأستاذ الشايب في البحث والدراسة لإنجاز عمله المنشور سنة 1991 والذي هو في الاصل رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا ، أشرف عليها الأستاذ الشاعر المبدع المرحوم محمد الخمار الكنوني، ونوقشت في بحر سنة 1989. وقد شملت : مقدمة وتمهيدا وثلاثة أبواب وخاتمة وملاحق وفهرسين.

عرض الباحث في المقدمة إلى دواعي اختياره لموضوعه التي تعود ، بصفة عامة، إلى الرغبة في تعميق المعرفة بالادب المغربي ، وإلى أهمية شخصية الاستاذ عبد الله كنون، باعتباره باحثا موسوعيا ومصلحا دينيا وداعية، يصدر عن توجه فكري سياسي يلابس مجمل كتاباته الغزيرة المتنوعة الشاملة للدين والتاريخ والأدب والنقد واللغة وغيرها ... غير أن إنتاجه الضخم لم يحظ بالعناية إلا على نطاق محدود ، رغم تأريخه الثقافي الخصب، وريادته في مجال الدراسة الأدبية... ولفت الباحث إلى الصعوبة المنهجية لدراسة الموضوع، وأشار إلى منهج تناوله وخطاطته العامة، الخ..

وفي التمهيد عرض إلى بداية التأليف الحديث في تاريخ الأدب العربي ، ثم وقف عند مؤلفات تؤطر تاريخيا في الثلث الأول من هذا القرن (العشرين) اعتبرها «الإرهاصات الاولى للدراسة الأدبية بالمغرب»(2)أو«بعض العلامات البارزة والدالة، التي نفرض أنها عينات ممثلة للدراسة التي كانت سائدة في هذه الفترة »(3) أي بداية القرن العشرين.

(1) الدراسة الادبية في المغرب -الأستاذ عبد الله كنون نموذجا -أحمد الشايب- طنجة-1991
(2) نفسه ص: 7.
(3) نفسه ص: 18.

والمؤلفـات هي:

1- «المنتـخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية » لمحمد السايح ، وقد صدر سنة 1920، ودل مؤلفه على محتواه بقوله: إنه يتضمن « منتخبات نثرية وشعرية، من كتابة علماء أندلسيين ومغاربة، من مؤلفين ، ومؤرخين، وشعراء، ومترسلين، مع الإلمام بنبذ من حياتهم » (4). وهو في قسمين رئيسيين : قسم عن المغرب ، وثان عن الاندلس .

2- مسامرات أدبيـة، وقد قارب الباحث من بينها خـاصة:

أ- مسامرة «الشعر والشعراء» لعبد الله القباج: المنشورة في العشرينيات أيضا، وهي كذلك في قسمين عامين: قسم استقطب وجهة نظر القباج عموما في الشعر. وقسم ثان لتحليات شعراء المسامرة ومجتزآت من شعرهـم.

ب- مسامرة «تاريخ الشعر والشعراء بفاس» لأحمد النميشي ، المنشورة سنة 1924، وتتألف من ثلاثة أقسام:

* القسم الأول في الإشادة باللغة العربية باعتبارها مقوما قوميا.
* القسم الثاني عرض تاريخي مختزل عام للدول التي تعاقبت على المغرب .
* القسم الثالث تراجم جد مقتضبة، ونتف شعرية للشعراء بفاس ، منذ تأسيسها إلى العشرينيات من هذا القرن (العشريـن).

3- «الادب العربي في المغرب الاقصى» لمحمد بن العباس القباج ، ونشرت طبعته الأولى سنة 1929، وهو في جزأين متضامين ، محتواهما : تراجم ومنتخبات لثلاثة أجيال، أو طبقات من الشعراء المعاصرين للقباج: طبقة الشيوخ ، وطبقة المخضرمين، ثم طبقة الشعراء الشباب الناهضين. وهذا التقسيم لا يخضع للسن فقط ، بل وإلى اختلافات كذلك في الموضوعات والأغراض المعالجة في شعر كل طبقة من الطبقات الثلاث.

لقد حرص الأستاذ الشايب على إبراز محتويات هذه المؤلفات ، والكشف عن بعض العناصرالمنهجية في تأليفها ، ليخلص إلى أن هذه«النماذج» تؤكد حاجة المثقفين المغاربة الملحة إلى الدراسة الأدبية ، وأنها -على حد تعبيره-: «تعكس البدايات الخجولة لهذه الدراسة» (5). ولا شك أن الباحث يقصد الدراسة الأدبية في مناحيها الحديثة، وعلى هذا المستوى فإن النماذج التي عرض لها في التمهيد لا تخلو من عناصر تجديدية ملابسة للعناصر التقليدية ، ومن أهم تلك العناصر

(4)المنتخبات العبقرية -الرباط- 1920. ص: 2.

(5)الدراسة الأدبية ... ص: 47.

التجديدية حضور الحس التاريخي وبحدة أحيانا، كما يبدو واضحا في مؤلف محمد بن العباس القباج: «الأدب العربي في المغرب الأقصى».

عنون الباحث الباب الأول بهذه الصيغة :« الأستاذ عبد الله گنون مؤرخا للأدب» وهذا الباب في مدخل وخمسة فصول هي على التوالي :-التحقيب الأدبي- تراجم الأعلام- الانتخاب والاختيار- البيبليوغرافيا- ملامح نقدية في تأريخ الأستاذ گنون.

* القضية المحورية في الفصل الأول هي قضية التحقيب الأدبي في تأريخية عبد الله گنون، وقد عالج الباحث في اطار هذه القضية المسائل التالية: مظاهر التحقيب - حدود وآفاق نظرية التحقيب الأدبي - مظاهر المرونة المنهجية (في تأريخية گنون) - التطور في تاريخ الادب.

مرتكز مباحث هذا الباب إذن ، هو نهج التحقيب المتداول في كتب تاريخ الأدب كقيمة مهيمنة، والذي انتهجه الأستاذ گنون ، خاصة في كتابه «النبوغ المغربي في الأدب العربي » وكتيبه « أمراؤنا الشعراء». إلا أن هذا النهج تعتريه مرونة في مباحث أخرى ، كالشأن في كتاب « أدب الفقهاء» حيث مزج الأستاذ گنون في التأريخ لأدب الفقهاء بين التحقيب المألوف والتصنيف وفق الأغراض ، في حين أنه ينطلق في كتابه « أحاديث عن الأدب المغربي الحديث» من مفهوم «الجيل» بدل العصر، وهذا يعني أن منهج الأستاذ گنون في التأريخ للأدب لم يستقر عند لحظة «النبوغ» وإنما تطور في اللحظات اللاحقة...

لقد حاول الباحث اختبارمنهج تاريخ الأدب عند الأستاذ گنون على ضوء جملة من التصورات والمفاهيم المراجعة لمناهج تاريخ الأدب التقليدية ، وهذا عمل إيجابي ، لكنني أرى أنه حين نعمد إلى ممارسته على مباحث كمباحث الأستاذ گنون، لابد من أن نضع في اعتبارنا أن مشاغلها ليست منهجية بالدرجة الأولى خاصة حين تأليفها، بقدر ما هي سياسية، فتأريخه ليس محكوما أولا بحوافز منهجية أو معرفية صرف ، وإنما هو تأريخ سجالي سعى إلى توفير وثائق الإقناع ، وصياغة مواقف والقيام بردود فعل ، ومن هنا ارتفاع صوته السجالي ، وحدته في بعض الأحيان ، أي أنه محكوم في الدرجة الأولى بحوافز سياسية ، وطنية ، قومية، تتغير استراتيجيتها حسب الشروط السياسية، والتاريخية، لكنها تظل ثابتا محوريا في المنظومة الثقافية للأستاذ گنون ، بحيث تشكل خلفيتها ، بل تطفو على سطحها بوضوح بيِّن في الكثير من الأحيان ، ولابد من استحضارها- وباستمرار- عند دراسة هذه المنظومة، أو دراسة أي مستوى من مستوياتها ، فعلى ضوئها يستقيم تفكيك منهجيته واستيعاب آليتها ومقاصدها ...وعلى هذاالأساس ، لابد أيضا من التمييز بين تقسيم عصور الأدب تبعا للعصورالسياسية كعمل سياسي وطني، من مراميه تأكيد « النبوغ

المغربي في الأدب العربي»- وهذه صيغة دالة في حد ذاتها - لتأكيد حقيقة إسهام المغرب في صرح تاريخ الأدب العربي، إسهاما بيّنا نابغا، منذ استتباب الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بين ظهرانيه، وعلى امتداد المراحل التي أرخ الأستاذ كنون للأدب في إطارها ، ولمواجهة التحديات المجابهة للأمة في شروط الاحتلال والمقاومة من أجل التحرر والتطور ... أقول لابد من التمييز بين تقسيم من مراميه هذا التأكيد والمواجهة ، وبين تقسيم يحتمي بالسياسي ويلحق به الأدب كالذيل. وقد أكد الأستاذ كنون غير ما مرة أن الادب لا يسير في ركاب السياسي تابعا. فهو إذن ، واع بقسرية هذه التبعية واعتسافها وأخطائها... وأكد أنه أرّخَ للأدب المغربي وللثقافة المغربية مواجهة للتحديات المذكورة، وهذا القصد كيف منهجه فجاءت مكوناته راشحة به مستجيبة له ... حتى مفهوم «الجيل» الذي استعمله في كتابه« أحاديث عن الأدب المغربي الحديث» الذي كتب في مرحلة تختلف عن مرحلة« النبوغ» فإنه ينزع أيضا إلى السجالية، أليس الكتاب دليلا على الإنجاز الثقافي عامة والأدبي خاصة لـ« أجيال» النهضة التي ينتمي الأستاذ كنون إلى جيل منها ؟ أليس وثيقة دالة على ما أنجزه جيله في مجال الادب العربي الحديث؟ وبإنجازه الذي رصد منه الأستاذ كنون ما رصد ، تتصل حلقات الأدب العربي المغربي وتتأكد إسهاماته في العصور والحقب القديمة ، وفي المراحل الحديثة، فكتاب «أحاديث» استئناف للمنجز في «النبوغ» ولكنه استئناف في شروط مغايرة، فجاء مغايرا لذلك عن سابقه فـ«أحاديث... » على هذا الأساس تكملة وامتداد لـ« النبوغ» يؤكد استمرار الإسهام المغربي في بحر الأدب العربي ، باعتبار الإسهام المغربي رافدا من روافده، ويدل على ما لحق منهج الأستاذ كنون من تطورات ليس هنا مجـــال تبيانهـــا.

وما معنى أن ينزع الأستاذ كنون في كتابه «أدب الفقهاء» إلى المزاوجة بين المنهجين التاريخي والفني؟ ألا تعني هذه المزاوجة أن أدب الفقهاء ، أو ما سمي بهذا الاسم ، امتلك عبر «تاريخه» القدرة على الخوض في كافة الأغراض«الفنية» التي طرقها الشعراء العرب والمدونة في سجل الشعر العربي كما انتهى إلينا في مختلف عصوره الكلاسيكية ؟ فكتاب «أدب الفقهاء» على هذا ، ذو نزعة إثباتية سجالية ، يثبت أن «أدب الفقهاء » أدب حقيقي يتوفر على كل مقومات الأدب - كما يتأكد من عنوان الكتاب- ويساجل عنه صراحة أو ضمنا، دالا على حساسيته، ومن ثمة على حساسية منتجيه...هذا بعض مما يمكن التطارح فيه ، ولا شك أن من وجوه أهمية بحث الأستاذ الشايب أنه أتاح الفرصة لذلك ... وإن كنت أتوقع ان يلتفت إلى مثل هذه القضايا الهامة ويعنى بهـــا ...

* في الفصل الثاني من الباب الأول ، انصب البحث على عناصر الترجمة للأعلام في تراجم الأستاذ كنون، وهذه العناصر هي : نسب الشخصية وموطنها- الصفات الذاتية والأخبار الشخصية- الصفات الفنية للشخصية - التراجم بين الطول والقصر - التحقيق في التراجـــم.

لقد صنف الباحث التراجم التي أنجزها الأستاذ كنون : إلى تراجم أدبية موجزة في سياق التأريخ الأدبي للعصر، شأن التراجم الأدبية في «النبوغ» . وإلى تراجم مستقلة، ويقصد بها حلقات سلسلة «مشاهير رجال المغرب». وإلى تراجم دونها ، ويقصد بها مباحث نشرها الأستاذ كنون في بعض المجـلات..

واللافت للانتباه في هذا التصنيف - وعلى وجه التخصيص - اعتبارالأستاذ الشايب سلسلة « مشاهير رجال المغرب» مجرد تراجـم ! أو هذا هو ما يوهم به تصنيفه لها، في حين أن جهد الأستاذ كنون سواء في «المشاهير» أو المباحث التي اعتبرها الباحث تراجم دون « المشاهير» يتجاوز الترجمة إلى مستوى المباحث المختصرة، إذ يخلص فيها جميعا من الترجمة للشخصية إلى إنتاجها ، فيضيء جوانب فيه، ويصوغ خلاصات ، ويعرض استشهادات ومنتخبات من إنتاجها . ولهذا لا يصح اعتبارها مجرد تراجم، وإلا لكان ذلك غمطا لواقعها العلمي وتلبيسا على المتلقي الذي سيتعامل مع بحث الأستاذ الشايب كدليل لمنجز كنون في إطار الدراسة والبحث الأدبيين.

على أية حال ، لقد صنف الباحث التراجم على النحو السابق، ثم انكب على تبيان محتوياتها ، وهدف الأستاذ كنون من القصد إلى تلك المحتويات بالذات ، وهو ما سماه الأستاذ الشايب منهجا! وخلص «إلى أن التراجم في تاريخ الادب عند الاستاذ عبد الله كنون لم تكن مجرد رواية ومسرد للأخبار فحسب، بل اعتمدت إلى جانب ذلك عى التحقيق العلمي ، والنقد التاريخي » (6) أي تحقيق الوفيات ، ونقد الروايات والاخبار...

* وعالج الفصل الثالث الذي عنوانه: «الانتخاب والاختيار» ص:113- شروط عملية انتخاب النصوص عند الأستاذ كنون ، فرآها تتمثل في:- التمثيلية لإنتاج الأديب- الجودة الفنية- والشهرة . وفي ملاحظاته حول عملية الاختيار، استخلص من استقرائه لمنتخبات كنون تقسيمه لها إلى :

أ- النص كوثيقة تاريخية.

ب- النص كوثيقة دالة على التحول الذي عرفته القيم الأدبية ولم يفته رصد عوامل أخرى لها اعتبار في اختيار النصوص ، كالمعيارين الأخلاقي والذوقي.

* وقصد الباحث في الفصل الرابع من الباب الأول إلى بحث الاهتمام الببليوغرافي عند الاستاذ كنون، كما يظهر في تأريخه للأدب ، أو في مباحث ببليوغرافية مستقلة. فقسم ممارسته في المستوى الببليوغرافي إلى قسمين رئيسيين:

أ- اللوائح الببليوغرافية وأخبار الكتب .

ب- فهارس الخزانات والإعلام الببليوغرافي.

وأضاء الباحث الطرق التي سلكها الأستاذ كنون في عمله الببليوغرافي ، مبديا ملاحظاته

(6) الدراسات الادبية في المغرب... ص: 110.

عن جهده في هذا المجال ، وخالصا « إلى أن الاهتمام الببليوغرافي لم يكن عرضيا في كتابات الأستاذ كنون ، فقد شكل دعامة أساسية من دعائم مفهومه لتاريخ الأدب ، وجاء موزعا بين التأريخ للكتب في حد ذاتها ، لحياتها ، ورحلتها في الزمان والمكان ، والأنساب والعلاقات بينها ، كما تجلى في وضع لوائح وفهارس تمكن الدارسين والمحققين من الوقوف على ما يدخل في نطاق اهتمامهم» (7).

*أما الفصل الخامس، والاخير، من الباب الاول، فقد رصد ملامح نقدية في تأريخ الأستاذ كنون للأدب. ومحاور هذا الفصل هي: -مفهوم الأدب- الظواهر الأدبية- المقاييس النقدية.

لفت الباحث في المحور الاول إلى المفهوم الشمولي للأدب عند كنون، وإلى الأسباب أو الحوافز التي جعلته ينزع الى رؤية الادب وممارسة التأريخ له على نحو شمولي، يتجاوز حدود حصره في النصوص- الشعرية والنثرية- التي تؤطر عادة في إطار الادب.

وعرض الباحث في المحور الثاني إلى القضايا التي رأى أن الأستاذ كنون أثارها في تأريخه للأدب المغربي ، وهي: قضية نشأة هذا الادب - قضية يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد - قضية التيار الفقهي وا نعكاساته على الثقافة والآداب في العصر المرابطي.

أما المقاييس النقدية في تاريخ الأدب عند الأستاذ كنون، فأجملها الباحث في: -النقد البلاغي- المقارنة- النقد التأثري الانطباعي.

وخلص في نهاية هذا الباب إلى غلبة تاريخ الأدب على مصنفات الأستاذ كنون، كما تبينا من الفصول السابقة.

وأود هنا إبداء ملاحظتين :

تتعلق الأولى باغفال الباحث - الأستاذ الشايب - لبعض الدراسات الهامة في إنتاج الأستاذ عبد الله كنون، كدراسته عن الشعر الاندلسي المنشورة في كتابه «خل وبقل» ابتداء من الصفحة 23.

وتتعلق الثانية بمنسوب الاهتمام الذي أولاه الباحث لمفهوم محوري في تأريخ الأدب عند الأستاذ كنون، وهو مفهومه للأدب الذي على ضوئه أرخ لتراكمات أدبية. لقد تناول الباحث هذا المفهوم المحوري بسرعة، في حين أنه أطال في بعض العناصر التي لا ترقى إلى أهميته ، شأن وقفته النظرية المسهبة عند مفهوم المقالة السجالية ، بدءا من الصفحة: 187.. ويتناول الباحث لمحور المقاييس النقدية، ينتهي الباب الأول، ليبتدئ الباب الثاني، وموضوعه:« الأستاذ كنون كاتبا

(7) الدراسات الادبية في المغرب ... ص 136.

للمقالة» ص:157- وهو في :

تمهيد . قارب الباحث فيه دلالة المقالة، وناقش تعريفات لها. والملاحظ أن الباحث في مناقشته ينزع إلى تقريب الشقة بين المقالة والدراسة ، كنوع من التبرير للجمع بينهما في دراسته، فهو لا يقبل ما يراه عند بعض الباحثين من فصل بين المقالة والبحث، وإنما يؤكد :«إن هذا الفصل الذي صادفناه بين المقالة والبحث لدى هؤلاء الباحثين، يصح في نمط واحد من أنماط المقالة هو المقالة الذاتية، أما المقالة الموضوعية فقد غلب عليها في العصر الحديث طابع الدرس والتمحيص، وصار الكتاب يتنافسون في التعمق في دراسة الموضوعات التي يعرضون لها ..»(8) ولأن مقالات ودراسات الأستاذ گنون يغلب عليها الطابع الموضوعي -على ما يرى الباحث- فلا يصح، على هذا الأساس، الفصل فيها بين المقالة والدراسة، أو المقالة والبحث ... وعلى أية حال، فهذا - في اعتباري - مجال للنقاش واسع لا أطيل فيه هنا ، وإنما أكتفي بالإشارة إلى أن الباحث حاول حل هذه المشكلة على نحو ما رأينا ، وهو حل غير مقنع في تصوري، فالأستاذ الشايب قصد إلى حل المشكل بالإستناد إلى خاصيتي أو طابعي « الذاتية » و« الموضوعية » وهما مفهومان ليس من الوضوح والتجانس بحيث يمكن استخدامهما بيسر للتمييز بين واقعة نصية وأخرى في مجال العلوم الإنسانية، وبصفة خاصة في مجال الأدب، هذا فضلا عن نسبيتهما الشديدة في هذين المجالين خاصة.

هذا وجه من ترخصات الباحث التي تنحو إلى «حل» المشكلات أو تناولها بسرعة، أو المرور حواليها ...دون النفاد العلمي إلى أعماقها لبلورتها وإضاءة ما يمكن إضاءته من أبعادها...

وقد استقطبت فصول هذا الباب أنواع المقالة في كتابات گنون، كما يلي:
- الفصل الاول: للمقالة النقدية .
- الفصل الثاني: للمقالة السجالية . وهذا - في اعتباري- هو أهم فصول هذا الباب، لنزوع الباحث فيه إلى التحليل حقا ، وتَنَكُّب سبيل التركيز على المحتويات الذي سلكه بالنسبة إلى المقالة النقدية مثلا. فقد ركز في تحليله لمقالة سجالية للأستاذ گنون هي مقالة« إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا » على عنصر السخرية واشتغاله في النص، ووظيفته... وقد لامس في تحليله المنهجي بؤرا حساسة فعلا ، مما جعل هذا التحليل يتميز في سياق هذا الباب.
- الفصل الثالث: لمقالة التعريف بالكتب.
- الفصل الرابع للمقالة اللغوية .
- الفصل الخامس للمقالة الإصلاحية.

وهذا يدل على على تنوع المقالة عند الأستاذ گنون ، كما استخلص الباحث، وهو تنوع

(8)الدراسات الادبية في المغرب ... ص : 162.

شاهد على موسوعيته ومشاركته... وقد رأى الباحث أن الطابع الموضوعي هو الغالب على مقالات كنون ، ولاحظ اختلاف أسلوبه تبعا لطبيعة الموضوع المعالج، معتبرا نأيه عن التصنيع اللفظي علامة على تطـــوره...

والواقع أن الأستاذ الشايب، رغم جهده العلمي في عموم رسالته، لم يوف في هذا الباب أيضا ، بعض المسائل ما تسحق من مزيد الدرس والتحليل، خاصة في الفصل الاول المتعلق بالمقالة النقدية، وهي من أهم إنجازات الأستاذ كنون، وإنجازات مرحلتها ... فهذا الفصل في عشر صفحات ونصف ، مداره في أغلبه ثلاث مقالات عن المتنبي، كتبها الأستاذ كنو ن خلال الثلاثينيات، قربنا الباحث من محتواها وطريقة المعالجة فيها، وناقش بعض مضامينها نازعا في الغالب إلى ما يخالف مذهب الأستاذ كنون فيها ... ومعنى هذا أنه لم يستقرئ تنوعات مقالات كنون النقدية وتطورها المنهجي، خاصة وأن الأستاذ كنون استمر في كتابة المقالة النقدية بعد مرحلة المقالات التي ركز عليها الباحث، وعرفت مقالاته النقدية تطورات بينة، توالت فيما أعقب من مراحل بعد الثلاثينيات ...

هذا الى أن تناول المقالة الإصلاحية ، والمقالة اللغوية ضمن الدراسة الأدبية تحت ذريعة شمولية مفهوم الأدب عند كنون ، ووجود عناصر أدبية -بلاغية في مقالاته غير الادبية - أمر غير مقنع، فالرسالة موضوعها الدراسة الأدبية تحديدا، من خلال منجزات الأستاذ كنون في إطارها . هذا هو المقصد الأساس . أما الاتساع في التجوز والترخص، فلا يؤدي إلا إلى أن يفقد الموضوع خصائصه النوعية ، فتنطمس ملامحه ، وينفتح الباب على مصراعيه للإجهاز عليه ، فحتى إذا افترضنا أن مقالات الأستاذ كنون الإصلاحية واللغوية تتوفر صياغتها على عناصر أدبية ، فلا يمكن أن يكون هذا مبررا لتناولها ضمن إطار موضوعه الدراسة الادبية، وليس أدبيات كنون الإبداعية . إن هذا المسلك من الباحث في الاتساع دون مبررات علمية، يؤكد تساهله المنهجي الذي لا تنضبط معه المصطلحات والإجراءات ... وإلا فما علاقة المقالة الإصلاحية بالدراسة الادبية؟ وهل مفهوم الدراسة الأدبية من الشمول بحيث يستوعب كل مقالة أدبية كيفما كانت؟ بَلْهَ المقالة الإصلاحية المتعلقة بالإصلاح الديني أو إصلاح التعليم ، والمقالة اللغوية التي مقصدها مسائل لغوية لا علاقة عضوية لها بالادب ، إذ الامر هنا لا يتعلق بلغة الادب ، أو بالاشتغال اللغوي في الادب، أو بمسألة أو قضية لغوية منخرطة عمليا في نص أو نصوص أدبية - وإنما الامر يتعلق بمقالات تعالج ظواهر لغوية عامة، أو تسجل مواقف سياسية في نطاق الدفاع عن اللغة العربية كمقوم من مقومات كيان الامة وهويتها، دون استحضار نصوص أدبية أو الاشتغال عليها أثناءها.

*الباب الثالث، والاخير من الرسالة ، خصصه الباحث لـ«الأستاذ كنون محققا للتراث» ص:255- وقد مهد له بتمهيد على أهمية مادته المتعلقة بحركة التحقيق عند المستعربين الفرنسيين لمتون من التراث المغربي ، فإنه يبدو واهي الصلة بموضوع الرسالة الأساس... ثم تعاقبت بعد التمهيد

ثلاثة فصول، هي على التــوالي :

- الفصل الاول، و موضوعه «التأصيـل» وهو رصد لما حققه الأستاذ گنون من متـون ، وإضاءة لطريقته في التحقيــق.

- الفصل الثاني، وموضوعه «القراءة» أي قراءة المتن المحقق من لدن گنون، قراءة عالمة قصد البيان والشرح والتعليــق.

-أما الفصل الثالث، فموضوعه «مكملات التحقيق» مـن المقدمـة، وعلامات الترقيـم، والفهـــارس.

كشف الباحث في هذا الباب عن منهج التحقيق عند گنون ، وعناصر قراءته العالمة للمتن رهن التحقيق، وكيفية تعامله مع مكملات التحقيق ، ولم يفته إبداء مجموعة من الملاحظات تتعلق بهذا العنصر أو ذاك مما عالجته فصول الباب ، واستخلاص أن منهج التحقيق عند كنون تطور من خلال ممارسته وتنوع تحقيقـــاته.

وأنهى الباحث رسالته بخاتمة ذكر فيها بالغاية من بحثه، بمحتواه العام... تلتها ثلاثة ملاحق : أولها عن سيرة حياة الأستاذ گنون . وثانيها لقاء معه تمحورت أسئلته حول بعض المحاور الرئيسية التي انشغل بها الباحث في رسالته. وثالثها جدول مقالات لم يجمعها الأستاذ گنون في كتب. والملاحظ أن الباحث أدرج ضمنها مباحث نشرها الأستاذ گنون في مجلات مغربية قبل الاستقلال، ثم عاد فطورها ونشرها في سلسلة كتيبات المشاهير، كبحثيه عن ابن الطيب العلمي ، وابن الونـــان...

وبعد الملاحق ، هناك قائمة من المصادر والمراجع ففهرس الموضوعــات.

يتضح مما سبق إذن، مدى غنى بحث الأستاذ الشايب الذي فوت على نفسه فرصا كثيرة لإغنائه أكثر... منها مثلا، أنه لم يستغل التغييرات والفوارق بين طبعات «النبوغ» الذي أدخل عليه الأستاذ گنون ما أدخل من تعديلات وتغييرات وإضافات طالت منهجه ومادته وأسلوبه ... وهذه الواقعة لحظة فائقة الأهمية لمعاينة ومقاربة التطور المنهجي والرؤيوي ... في «نبوغ» ما بعد الاستقلال عن أصله «نبوغ» ما قبل الاستقلال ... والشأن ذاته بالنسبة إلى مباحث عن مشاهير رجال المغرب ، نشرها الأستاذ گنون أولا في مجلات مغربية قبل الاستقلال، كمجلتي «السلام» و« الثقافة المغربية» ثم راجعها وأدخل عليها من التعديلات ما أدخل ، ليعيد نشرها في سلسلة كتيبات «مشاهير رجال المغرب» ..كذلك ، فقد فوت الباحث على نفسه فرصة الاستفادة من الندوة التكريمية التي أقيمت للأستاذ گنون بطنجة سنة 1986 ، ونُشِرَتْ بعض من أهم موادها في الملحق الثقـافي

لجريدة «العلم» عدد: 799-1 نونبر 1986- والمواد المنشورة بهذا العدد بالغة الأهمية لموضوع الرسالة بالذات، وخاصة على المستوى المنهجي في تأريخ الأستاذ كنون للأدب...

على أية حال ، فما ذكرته من تفويت الباحث فرصا ثمينة على نفسه لا يعود فقط إلى مدى استقصائه، بل وإلى الترخص في الضبط المنهجي أيضا ، وأدلل على هذا - على سبيل المثال لا الحصر - بكونه ركز في تمهيد الرسالة على«تاريخ الادب» مؤكدا أنه في صورته الحديثة معطى أوربي ، استفاد منه المشارقة أولا، ثم المغاربة من سبيل المشارقة ... وهذه الاطروحة - التي تحتاج إلى تمحيص ونقاش مدقق ليس هنا مجاله- مفادها في سياق التمهيد للدراسة الأدبية عند الاستاذ كنون، أن منهج تأريخه للأدب ملحق بالتواريخ المتأثرة بالمناهج الأوروبية في تاريخ الأدب، أو هو تنويع عليها ... سوى أن الباحث يؤكد في أكثر من موضع من رسالته ان منهج الأستاذ كنون في التأريخ للأدب منشد إلى التراث العربي أساسا (يراجع القسم الأول من التمهيد وخاصة ص: 16-17. ويقابل بما جاء في آخر ص: 113 وبداية ص 114 مثلا). وفي هذا السياق -سياق الضبط المنهجي- يمكن أن نطرح أكثر من تساؤل عن مقصد الباحث من «تاريخ الأدب» و«الدراسة الأدبية» ؟ لأنهما غير منضبطين منهجيا في البحث، بدليل توسعه إلى ما يجاوز حدود «الدراسة الادبية إلى مقالات ليست من صلبها أصلا، كما عرضنا له في موضعه، حتى ليمكن القول إن عمله في الرسالة- التي لها أهميتها الفعلية- هو محاولة تأريخ لأوجه من انشغالات الأستاذ كنون الثقافية، وليس تركيزا منهجيا على فاعلية الدراسة الأدبية عنده ، بدليل أننا حين نفرغ من قراءة البحث برمته تتحصل لدينا فكرة عامة عن انجازات ومشاركات ثقافية متنوعة للأستاذ كنون ، ولكننا لا نخرج بتصور واضح عن طبيعة «الدراسة الأدبية» عنده، والخصائص المنهجية الكيفية لأنواعها، ومنهجه او مناهجه وأدواته المشغلة في إنجازها، وما الى ذلك مما يهم البحث المنهجي.

إن ترخص الباحث في المسألة المنهجية، أو محدودية إيلائه إياها ما تستحق من اهتمام وحرص، يتأكدان أيضا من إشاراته العابرة لمنهجه، إذ لم يعن بالكشف الواضح عن خطته المنهجية وتحديدها بدقة، وإنما اكتفى بالإشارة إلى أن تنوع الدراسات الأدبية عند كنون اقتضى منه- أي من الاستاذ الشايب- «الاعتماد على منهج متكامل نراوح فيه بين الوصف والاستقراء والتحليل»(9).

وبعد..فإن الجهد المبذول من قبل الأستاذ الشايب في انجاز بحثه المفيد عن شخصية وعمل مثقف مشارك، وعلم رمز، لم ينل من عناية البحث العلمي إلا اليسير قياسا إلى عطائه الزاخر- أقول إن الجهد المبذول ليستحق كل اعتبار وتقدير جدير بهما بكل تأكيد، وما أبديته من ملاحظات عن هذا الجانب أو ذاك، أو عن هذا العنصر أو ذاك من الرسالة، ان هو إلا وجه من الحوار الضروري المفروض أن

(9) الدراسات الادبية في المغرب.-المقدمة-: ص: 7.

يفتحه أي بحث له قيمته الحقيقية ، ولذلك فهي لا تغمط جهد الأستاذ الشايب حقه البيِّن، وأهمية بحثه التي لا يرقى إليها شك، بل إن ما لا حظته إن هو إلا فضل من أفضاله المستحقة له، لأنه هو الحافز عليه، فهو فضل أضافه إلى أفضال بحثه الذي أتاح فرصة محاورته ..